

نظرية الانعكاس

- سادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نزعة أدبية تدعو إلى ربط الأدب بالحياة واصطلاح على تسميتها بالأدب الواقعي، وكانت أبرز تلك الجهود ما ذهب إليه (تين) الذي رأى بأن هنالك ثلاثة عوامل تؤثر في الأدب (الجنس - البيئة - الزمن)
- كذلك فقد كانت محاولة الأديب الروسي تولستوي بالدعوة إلى فن يسعد الجماهير الفقيرة على وجه الخصوص وعيا منه بأهمية العلاقة بين الأدب والقراء عامة دون تمييز طبقي.
- وبشكل عام كانت تلك الأفكار السابقة إرھاصا أوليا للاهتمام بالعلاقة بين الأدب والمجتمع في الدراسات الأدبية، وتركيز على وظيفة الأدب.
- استندت نظرية الانعكاس إلى الفلسفة الواقعية المادية بعكس النظريات السابقة جميعها التي استندت إلى المثالية. وهذه الفلسفة ترى بأن الوجود الاجتماعي أسبق من الوعي وأنه هو الذي يحدد أشكال ذلك الوعي.
- تتميز هذه النظرية بحيويتها وقدرتها على الاستمرار وتطور مفاهيمها بين فترة وأخرى وبكونها اهتمت بكافة جوانب الظاهرة الأدبية.
- ترى الفلسفة الواقعية المادية أن الواقع المادي (أي علاقات المجتمع وقوى الإنتاج) وهو ما يسمى بالبناء التحتي يولد وعيا محددًا يتمثل في الثقافة والفلسفة والأدب والقوانين أي ما يسمى بالبناء الفوقي. وأن أي تغيير في البناء التحتي يستدعي تغييرا في البناء الفوقي بالضرورة.

- بمعنى آخر أن أي تغيير في البناء الاقتصادي أو الاجتماعي يؤدي إلى تغيير في البناء الفوقي أو ما يسمى بالوعي. غير أن العلاقة بين البنائين علاقة جدلية ذات تأثير متبادل، فالتغير الحاصل في البناء الفوقي يعود لينعكس أثره على البناء التحتي.
- ومن حيث الأدب فكل تغيير اقتصادي أو اجتماعي يستتبع تغيرا في الرؤية لمفهوم المجتمع واللغة والأدب وهو ما يؤدي بالضرورة إلى تغيير في الأشكال الأدبية من حيث الموضوعات والأساليب والأهداف، وهو ما يعني أن الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي.
- ولا يعني ذلك أن الأدب مجرد تابع للظروف الخارجية بل هو أيضا يؤثر فيها كما يتأثر بها، فالعلاقة بينهما جدلية.
- ارتبط بهذه النظرية مفهوما الالتزام والواقعية والذي ربما يتداخل مع المعنى الأخلاقي لدى البعض،
- لكن المعنى الحقيقي للواقعية هو التعمق في تحليل العلاقات الاجتماعية من الداخل من منطلق الالتزام بمبادئ الفلسفة التي يصدر عنها الأديب وخصوصا في الواقعية الاشتراكية.
- التزام الأديب يقصد به أن يكون أدبه هادفا يحمل رسالة تتفق مع الأيديولوجية أو العقيدة.
- إذا فقد ارتبطت نظرية الانعكاس بشكل كبير جدا بالفلسفة الواقعية الاشتراكية التي قامت على التفسير المادي للحياة والانتصار للطبقات الكادحة ضمن ما يسمى بصراع الطبقات.
- يمثل الأديب عضوا في الجماعة، تؤثر فيه العادات والتقاليد الموروثة، وحين يبدع فإنه يعبر عن علاقته بالواقع ليكشف الخلل في تلك العلاقة وليقدم رؤية جديدة أكثر

انسجاما من خلال عمله الأدبي. فالأديب هو الأداة التي يعبر المجتمع من خلالها عن نفسه.

- طالما أن الأديب عضو في الجماعة فإن مشكلاته الخاصة جزء من مشكلات المجتمع فهو حين يعبر يمزج الخاص بالعام والفردى بالجماعى ليحقق لتجربته شرط التواصل مع القراء.

- وحتى على مستوى اللغة فالأديب يتعامل معها من منطلق أنها ظاهرة اجتماعية، وهو مقيد بمستوى لغوى معين يحدده الوضع الاجتماعى والثقافى والاقتصادى للمرحلة التى يعيش فيها الأديب.

- إذا فالعمل الأدبى نتيجة للتفاعل بين الفرد الأديب والجماعة، فالقصيدة أو الرواية معبرة عن موقف الأديب من المجتمع.

- موقف نظرية الانعكاس من القارئ متميز عن النظريات السابقة من حيث إنه ليس مجرد متلق للعمل الأدبى بل ومشارك أيضا بشكل غير مباشر فى عملية الإبداع الفنية باعتبارها جزء من المجتمع الذى يستقى منه الأديب مادته.

- وترى نظرية الانعكاس أن الأدب فعالية اجتماعية، وأن وظيفة الأدب ليست المتعة الجمالية أو المهارة اللغوية بل يسعى الأديب لنشاركه فى التجربة بشكل يؤدي إلى تغيير وجهات نظرنا وأفكارنا. والهدف من كل ذلك هو خلق نوع من الاتساق الفكرى والشعورى فى الموقف الجماعى بين أفراد الطبقة الاجتماعية بطريقة غير مباشرة، أى من خلال الأدب.

- وظيفة الأدب فى نظرية الانعكاس تتمثل فى للتنوير والتحفيز وفهم الحياة بطريقة أعمق، وتحريك الإنسان ليساهم فى تغيير واقعه الاجتماعى نحو الأفضل.

- نلاحظ عامة أن هذه النظرية تستند إلى فلسفة مضادة للنظريات السابقة، فقد استندت للواقعية المادية بدلا من المثالية التى اعتمدت عليها سابقاتها، وقد خاض

أصحابها صراعاً فكرياً ضد أصحاب فكرة الفن الخالص أو نظرية الخلق، وأيضاً ضد فكرة الأدب الفردي أو أصحاب نظرية التعبير.

- يركز أصحاب نظرية الانعكاس على الدلالة الاجتماعية للأعمال الأدبية وعلى العلاقة بين الأدب والمجتمع بالدرجة الأولى وكيفية جعل الأدب شيئاً فاعلاً وموجهاً لحياة الناس.

- إذن فقد ركزت هذه النظرية على محور **وظيفة الأدب** وانطلقت منه لتفسير الظاهرة الأدبية.